غادة بابل

La Belle de Babylone.

—٢—

انفردت شميرام في مخدعها وهي اشبه شيء بنجم الصباح المتلالىء في الافق: ربعة القوام ، عبلة الساعدين ، رخصة الجسد ، لدنة المعاطف ، جميلة الانف كبنات جنسها الساميات . حوراء البشرة ، دعجاء ، وطفاء ، شعرها اسود حالك جثل ، قد ضفرته ضفيرتين ، وعقصته حول راسها على شكل العقال ، وقد لوحتها شمس بابل ، وتدفقت الحمرة التي شربتها في دمها حتى سرت في عروق خديها كالاسيلين ، وصبغتهما صبغا لطيفا يخجل الورد منه . واثر فيهما تزاحم شعرها وهاجرة النهار ، فعلتهما لآلىء من العرق حتى ليظن الناظر اليها انها حورية من حور الجنان . ثم اخذت تناجي نفسها بما يشبه هذه الاقوال :

مالك يا قلبي خافق في صدري ؟ وما لك يا مخيلتي تتعبيني بالاشباح والاخيلة ؟ كنت قبل اليوم لا اعرف للهم منبتا ، ولا للحزن موطنا ! فما انت ايها الحب حتى سطوت فقسوت وحكمت فبغيت ؟ كنت احب شمشو حبا هادئا حب بنت الخال لابن عمتها ، او حب الشقيقة لشقيقها ، فاستمر ذلك الحب حتى استولى الغرام على قلب خال فاستحكم ، وتكيف حب العشيرة فاصبح لواعج هوى ، واضحت كل جارحة مؤلمة . آه ! أنا بنت اشرف أشراف بابل ، أنا بنت الدلال والترف ، من ذا الذي ينقذني من هذا المأزق ؟ إذ لا قدرة لي على احتمال هذا الضيم ، ولا طاقة لي على ركوب هذا المركب الخشن ! فقد اربد الكون في عيني ، وانسدل عليهما سجف من الظلام فلا تبصران الشمس ولا تتمتعان بالنظر الى القمر والكواكب وهل في سماء الشيبية شمس غير شمشو ، وهل في افق بابل قمر غير حبيبي ، وأنى للكواكب ان تبقى في رقيع السماء ولا تتوارى خجلا من سنائه ! .. انت انت يا شمشو علة شقائي ... ما اسعد الشقاء في سبيل حبك ، وما اسعدني لو متت الحياة فداء لك ، ولكن بشست

السعادة التي يقضي نعيمها في البعد عنك . ما الحيلة في الاستيلاء على قلبك ؟ وكيف يهون عليك ان تتركني العوبة بيد الاحزان .

وهب ان شمشو يوافقني في الحب والزواج . : لكن هناك حبيبته حترآ فانها تقف عقبة كؤودا في وجهنا . كيف اتخلص من مراقبتها وادفع عني شرها ؟.

ولما اتت على ذكر حترآ ورقيبتها في الحب شعرت بانقباض شديد ولم تتمالك من ان تتنهد وتتنفس الصعداء ثم استخرطت في البكاء فتساقطت دموعها تساقط الطل على الورد وتناثرت تناثر اللالىء على الارجوان فكفكفت دموعها باصبعها ومسحت خديها بقطعة من نسيج كانت بيدها تريد خياطتها . فدخلت في هذه المطاوي والدتها ريماة ولمحت آثار البكاء عليها فاستغربت منها هذه الحال وقالت لها : بنيتي ما الذي يبكيك ؟

شميرام سرايت حلما في الليل الماضي فازعجني وكدرني كل الكدر فتشاءمت منه.

ريماة ـ وما هو حلمك ؟ فان كان داعيا القلق عمدنا الى الكهنة والسحرة والمنجمين واتخذنا التعاويذ والطلاسم والرقى واتقينا شر الارواح الشريرة وإلا فلا تكترثي له .

شميرام ـ رايت كلبا اسود دخل الهيكل وقلب تمثال الاله « مرودخ » وحطمه ورايت في غرفتي هذه طفلا بلا حنك ادخلته علي نتو .

ريماة ـ ان دخول الكلب الاسود في الهيكل يدل على ان اسس ذلك الهيكل غير مكينة تتداعى؛ اما سقوط التمثال وتحطمه فيشير الى تدهور المملكة وزوال مجدها ؛ ويشير الطفل الذي لاحنك له الى ان حياة الملك طويلة إلا ان البيت الذي ولد فيه ينقض حجرا حجرا . غير اني اسألك ياشميرام : هل كان الطفل ناقص الحنكين او احدهما . فاذا كان حنكه الاسفل فقط ناقصا فيدل على ان غلات هذه السنة لاتقل .

شميرام ـ لا يا اماه ! انه ناقص الحنكين . ولكن كيف تعللين وجود نتو في هذه الامور وتوسطها في ادخال الطفل في غرفتي ؟

ريماة — ان الصور التي ترامت لك في الحلم والاشباح التي ظهرت لك في النوم لو رأيتها في اليقظة ، لدلت على ما فسرته لك ولا بد من ان التفسير يختلف على ما اعتقد ما بين الحلم واليقظة ، وبين الحالين فرق بين لا وسع لي على فك مغلقه . فالكهنة المنجمون الكلدان متضلعون من هذه الاسرار وتفاسيرها . فما علينا إلّا الذهاب الى بيروس الكاهن فيوقفنا على حقيقة الامر .

ثقل وقع اسم بيروس على مسامع شميرام . وشعرت بضغط جديد على قلبها ولكنها تجلدت واجابت والدتها قائلة: اني لا اركن الى اقاويل بيروس ، لا بل انفر منه نفور الظبآء من بين يدي الصياد .

ريماة — يا بنيتي . لا تستخفي بالكهنة ، ولا تشكي في علمهم ، وقدرتهم على معرفة الاسرار وتفسير الاحلام اشهر من ان تذكر لان بينهم وبين الارواح صلات محبولة القوى وثيقة العرى . إنهم ينفعون ويضرون ؛ يقيمون ويقعدون ؛ يصلحون ويفسدون .

شميرام — لا اقول شيئا عن الكهنة وقدرتهم ، لكن لا اثق في بيروس وقد زاد الطين بلة في هذا الصباح ، حين كنت في الهيكل . فانه تذرع بكل الوسائل ليسود على قلبي ، لا بل طاردني مطاردة العشاق لكنني وقفت في وجهه كالطود الشامخ ، واذ لم يظفر مني بامنيته تزلف من نتو وجعلها صلة له في حاجته فارجعتها بخفي حنين .

ريماة — لولا المخافة من حدوث شر مستطير لابلغت الخبر الى والدك ، اذ يعز علينا نحن اشراف بابل ان نرى رجلا يخاطب بناتنا ونساءنا بهذا المعنى ، وما جزاؤه إلّا القتل . غير اني اضرب صفحا عن ذكر هذا الخبر لوالدك حقنا للدماء .

شميرام — دعي يا والدتي اسم بيروس الدجال واجعليه نسيا منسيا . فان ابنتك عفيفة الجانب تتنزه عن المعايب ولا تشغل بالها إلّا بما يرضيك .

ريماة — بنيتي ! ان النصيب الذي ادخرته لك يفوق كل نصيب فانت خطيبة شمشو ابن عمتك

شميرام ـ انا اطوع اليك من بنانك ولكن شمشو ... واغرورقت عيناها بالدموع ثم غصت .

ريماة ـ سكني روعك واهدأي والقي حملك علي وانا ادبر الامر . ان شمشو لايحيد عن امري وامر ابيك لما هو عليه من الارتباك في احواله وفي اسباب عيشه ...

ولم تزد على هذا الكلام بل ارادت ان تلهي شميرام وتبعد عنها اضطرابها وروعها واشتغالها بموضوع يعذب فكرها . فقالت لها بنيتي يجب علينا اليوم ان نعد كل شيء لان نهار الغد هو يوم راحة للنفس « اي سبتو » فيجب ان تطبخ الطبيخ وتغير الثياب . اذ يحظر علينا القيام بمثل هذه الامور في يوم الراحة الذي يأتينا خمسا في كل شهر في اليوم السابع والرابع عشر والتاسع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين . كما انه يحظر تقديم القرابين ويمنع على الملك مخاطبة الشعب وركوب المركبات او القيام باي عمل مدنيا كان او عسكريا. حتى الاستشفاء بالادوية .

شميرام ـ مالنا وذكر يوم الراحة . فكل ايامنا « سبتو » فلسنا نحن الذين نطبخ في البيت ولسنا ملوكا لتكلم الشعب او تركب المجلات (العربات). اما ثيابي فقد غيرتها في هذا الصباح . واني قلقة البال غير مرتاحة لان أغيرها مرة ثانية واتزين بالبستي الجميلة . فاعد الشهور واحصي الايام لان الحياة كلها تعب . وها انا في الشهر الثاني عشر من السنة ولم اذق لحظة من السعادة في نيسانو ، شهر الالهين انو و بل ، ولا في آيارو المخصص بـ « أياه » ولم يكن « سوانو » والالهة حسن» اسعد لي منهما . ولما جاء شهر دوزو ، قلت ان الالهة آذار سيقشع هذه الغمامة من قلبي ولكن خابت آمالي واخذت اعلل النفس بزوال الهموم في شهر آبو وعقدت حبل رجائي بملكة القوس وهكذا توالت الشهور الواحد وتسرينو وارخ سمنا وكسليمو ولم تشفع بي آلهتها إشتر وشمش ومرودخ ونرجل وعقبها طيبتو وشباتو وهذا آدارو ولم تكن آلهتها بابيكل وريمون والالهة السبعة العظيمة اوفق بي من سواهم فلا

ادري أي الايام يوم سعد لي . ولا ادري كيف يقول المنجمون ان في السنة ايام سعد وايام نحس . فهل سنتي كلها . ياترى ، سداها بؤس ولحمتها شقاء ؟ وهل كان يوم ولادتي يوم نحس وتعس ؟...

فقاطعتها والدتها ساخرة من اقوالها وندبها حالها وقالت لها ضاحكة : ان سعادتك في شهر «آراخو مخرو» وهو الشهر الكبيس الذي يضاف كل ست سنوات الى الاثني عشر شهرا . وسيأتي بعد السنة التالية . واعلمي ، ياشميرام ، ان الفأل يختلف باختلاف العوامل التي تفعل في الحظوظ . فمن الاحلام ما هو من دواعي الهناء ومنه ما هو من بواعث الشقاء . والحيوانات والطيور والاشكال الهندسية مؤثرات في حظوظ البشر . ولا يعلم ذلك إلا الالهة والكهنة والمنجمون الراسخون في العلم . وازيدك علما انني قد استشرت السحرة والمنجمين عن طالعك وعزموا الارواح على هذه النبة فطمأنوني وقالوا ان مستقبلك سعيد وان شمشو يكون نصيبك مهما فتلته فاتلات الحب والغرام عن غيرك . فثقي بي . وسآخذك بعد ظهر هذا اليوم الى التنزه لترويح النفس فكوني على اهبة .

●●●

اخذت ريماة ابنتها شميرام ومعهما ثلة من العبيد والجواري الى التنزه إلا ننو فانها تمارضت وبقيت في البيت . سارت ريماة وشميرام واتباعهما في طرق بابل حتى وصلوا اسوار المدينة الداخلية ومروا من باب المدينة تحت طاق معقود وما عتموا ان اجتازوا اسوارها الخارجية وجلسوا هناك على شاطئ الفرات وكان نسيم الصبا يلعب بالنفوس فيطربها ومما كان يزيد المشهد بهجة وسحرا اغاني السفانين واصواتهم الرخيمة فمنهم من كان ينحدر في النهر بالمقاذيف ومنهم من كان يصعد بنشر الشرع او بالجر بالحبال . وكان العركيون يصطادون البز والشبوط والبني وهم فرحون بمسرات الحياة الشطفة كان فيهم من يصيد بالشرك ومنهم بالصنارة ... تشاهد هناك القفف وهي سفن مدورة مصنوعة من اغصان الشجر والخوص مطلية بالقار . و « الاكلاك » وهي سفن مؤلفة من قرب او « اجواد » منفوخة يربط بعضها ببعض بحبال من الياف النخل وفوقها خشب وهي تحمل البضاعات والغلات والفواكه اليابسة والرخام والصخر من

نتاج بلاد الشمال وفي كل كلك رجلان او ثلاثة او اربعة هم اصحاب ذلك المركب. واذا نظر المرء الى البر رأى قوافل التجار آتية من بلاد الفنيقيين حاملة العاج واواني الخزف والاصباغ والتحف والنفائس والاثواب « والاقمشة » الغالية الاثمان .

لم تنبسط نفس شميرام برؤية هذه المشاهد ، ولم ترمقها بنظرها إلا كرها او استخفافا . ومهما حاولت والدتها ريماة ان تلهيها او تطربها ازدادت انقباضا وتأوها وتفكرا في شمشو . فعجزت والدتها عن افراج الهم عنها فهمت راجعة بها الى البيت . واذا بجلبة عظيمة واصوات وقع حوافر خيل وبغال وقعقعة دواليب عجلات وبمتار ينادي: افسحوا الطريق لملك الملوك لسيد الاقوام لسلطان الاقاليم . قفوا تعظيما واجلالا لمالك الرقاب ، للقابض على مقدرات الشعوب، لصديق الالهة وحبيب الارباب » .

فكان الناس يخففون السير ويلجأون الى احدى زوايا الجادة او الطرق المتشعبة منها والذي لايقوون على احد الامرين كانوا يصطفون صفوفا منظمة على جانبي الطريق او يخرون سجدا الى الاذقان . وكان الفلاحون يتركون حقولهم ويركضون لمشاهدة الموكب الملوكي .

مر الموكب بوقار وابهة بين تهليل وتصدية الجمهور احتفاء بالملك الراجع من القنص والصيد رجوع منتصر ظافر بعد ان غاب عن عاصمته خمسة عشر يوما لهذه الغاية وكان اعد العدد وهيأ الاسباب لهذه الحملة او الرحلة الى الفرات الاوسط .

جاءت طليعة الجيش الجرار وعقبها الملك جالسا في مركبة وفوق رأسه مظلة من نسيج مطرز بالاحمر والازرق والسائق في الجانب الايمن يقود الجياد ويمنعها العثار وهناك خصيان في طرفي المركبة وبايديهما مذبات لطرد الذباب وكانت مركبات الامراء تتلو مركبة الملك فمركبات الوزراء . فرهط من الخيالة حاملين القنا ، فالمشاة ، فالكلابون (فمربو الكلاب) ، فالخدم . فالبغال وهي حاملة الاثقال والمعدات والخيام والصيد. وكان بين غنائم الصيد ثلاثة اسود وعدد من الغزلان وبعض الدببة وقرأ واحد ونعامة . وشيء كثير من الطيور كالحبارى ومالك

الحزين (البلشون) وغيرها .

وبين الاسود الثلاثة اسد كبير الجثة ، حي يزأر زئيرا يردد صداه فضاء بابل الواسع . وقد صاده الملك برمية قوس هدت شيئا من قوته ثم صارعه صراعا عظيما عرضت حياة الملك للخطر ؛ فاتى الى نجدته نفر من حاملي الرماح إلّا انه ابتهرهم شجاعة واخذ من يد احدهم الرمح وغرز نصله في قفا الاسد حتى شكه شكا في الارض وصرع الليث ثم اذن للجنود بالتقدم فاخذوا الاسد ووثقوه وقادوه الى المعسكر وهم فرحون ببسالة ملكهم العظيم .

وعلى اثر هذا الفوز المبين والنصر الباهر قدم الملك تقدمة شكر الى الالهة . فوقف امامه كاهنان وبيد كل منهما كنارة Harpe وهما متهيئان ليوقعا عليهما ترنيمة الشكر ؛ ثم اتي بالاسد ووقف الملك مع حاشيته وبيده القوس فقدم اليه وزيره كاسا مترعة خمرا مقدسة فذاقها ثم افرغها على الصيد والحال صدحت الموسيقى بترنيمة الشكر .

وكان هذا الفوز احدوثة جميع الناس في المدن والقرى والمساكر والاندية .

مرت تلك الجموع فزحمت الطريق فضاقت بريماة فعطفت على طريق ثانية تخلصا من هذا الازدحام . وبينما كانت سائرة استوقف انظارها وانظار جماعتها السوق القائمة في احدى ميادين المدينة كانت تعرض فيها البنات للزواج ؛ والسمسار يصيح بصوت جهوري واصفا جمال هذه ، وحسن تلك ، ومعددا حسنات الاخرى واخلاقها وآدابها متفننا في بيان مقومات الكياسة ماشاءت الفصاحة والبلاغة . فتارة يطري الجمال ومؤثراته في الحياة وسيادته على القلوب وما يولده فيها من الفرح والسرور وطورا يفضل عليه الاخلاق الحميدة وجمال الاداب وما تورثه من السعادة في البيت بعد الزواج حسب البنت المعروضة في تلك السوق . ومن وقت الى اخر كان ينادي معرفا ثمن السياق (المهر) الذي يجب ان يدفعه الشاب الراغب في تلك الابنة الجميلة او البائنة التي تدفع عن الاخرى الذميمة الصورة للشاب الراغب في زواجها . وهناك رجل آخر يقبض مهر الجميلات ويدفع منه بائنة عن الذميمات وقد اكتظت ساحة الميدان بالشبان الراغبين في الزواج وبالمتفرجين من جميع الطبقات وكان الشبان يطوفون على البنات وينظرون

اليهن نظرات طويلة ، لا بل يتقدمون منهن ويفحصونهن فحصا دقيقا من قمة الراس حتى اخمص القدم كانهم يشترون السائمة او الخيل .

وكانت الابنة التي تميل الى احد الشبان تشير اليه بغمزاتها الفتانة سرا ، وتومىء اليه خلسة معربة عما يكنه فؤادها من الحب والهوى . فالجميلات منهن كن يتبخترن ويتباهين ويغازلن الرجال تائهات دلالا وساحبات اذيال العجب آتيات سحرا حلالا . وكانت الدميمات يخفين بلباقة خاصة بالاثاث ما ينقص بتلك الدمامة فيزين وجوههن بوسائل صناعة التحسين اي بالدهن والصبغ والطلاء والكحل والخضاب ، ويتسمن ابتسامات زائفة ، وحركات وسكنات كاذبة ، لاتخفى على عيون الشبان الناقدين ، والرجال الباصرين ، حتى انهم كانوا يسمعونهن عرضا بعض قوارص الكلام فتثور الثائرة داخلهن وتنقبض نفوسهن المّا وجزعا من هذا الاستخفاف والاستهزاء لاعنات الطبيعة الجائرة التي حرمتهن مظاهر الجمال.

فتثاقلت شميرام في السير وهي تنظر الى تلك السوق نظرة آسف متألم وخاطبت امها قائلة: يؤلمني وايم الحق حال هذه البنات اللواتي يبعن ويشترين في السوق العامة كأنهن اسيرات او اماء (عبدات) . ولا ذنب لهن سوى انهن ولدن في طبقة العامة المعدمة ، فلو كن من الطبقات العليا لما عرضن عرض السلع .

فاجابتها والدتها : ما هذه الحال فيك يا بنيتي فانك تتبرمين من كل شيء وتنقدين المعتقدات والعادات وتنظرين الى الدنيا وما فيها نظرة شؤم . فهل في هذا المشهد ما يؤلم او يؤسف ؟ والذي اراه انا هو نظر كله فرح وحبور وحب وزواج وفيه تتحقق رغبات البنات والشبان واكبر ملذات الحياة فيجب ان تضحك وتمرح في هذه السوق .

فلم تعر شميرام جوابا ولكنها لم توافق والدتها في قولها .

لندع شميرام وامها في طريقهما ونرجع الى بيتهما ونرى ما جرى فيه من التدابير والمؤامرات في غيابهما .

غر شيطان الطمع نتو ، الخادمة الوفية والنجية المخلصة حتى اليوم فحدثتها نفسها بسوء ، مدفوعة بمواعيد بيروس الخلابة . وصممت على ان تتفرع بكل

الوسائل لتحمل سيدتها الفتاة على الاقتران بالكاهن الكلداني . فوقفت على باب الدار منتظرة مرورة من هناك لتفاوضه في الطرق الموصلة الى غايتهما . جاءها بيروس فافضت اليه بالحديث الذي جرى بينهما وبين شميرام واطلعته على سر الحب المستحكم في قلب سيدتها ، وشغفها بابن عمتها واعراضها عن الاقتران بكاهن له زوج غيرها واوقفته على انشغال شمشو بحب حترآه بنت اجيبي الصراف ولكن ضيق يده عقبة كؤود تحول دون خطبته لها . وهو ابي النفس عزيز الاخلاق لا يجنح الى مفاتحة ابيها بالامر لئلا يسمع كلمة الرفض فتمس كرامته .

واقترحت على بيروس ان يمد شركا يصطاد بمذلك الفتى ويبعده عن الديار الى بلاد نازحة بامل الربح والتجارة ويتآمر على اغتياله في الاقطار الغريبة او يضع عقبات في سبيل رجوعه الى الوطن وينشر اخبارا كاذبة تنعيه فاذا تقادم العهد على سفره ويئست شميرام من عودته تداعى بنيان الحب في قلبها فيسهل آنئذ اقامة صرح آخر في هذا القلب يكون بيروس الآمر الناهي فيه والسائد عليه .

كان لهذه الالفاظ وقع عظيم في نفس الكاهن الكلداني الامارة بالسوء فودع تتو وذهب مهرولا الى الهيكل وهو مفكر في حل هذه المعضلة ومد شرك الهلاك لشمشو .

انقضى ذلك الليل وثلاث ارواح تتصادم في الفضاء الاوسع في نزاع وجدال وهي روح شميرام العاشقة ، وروح شمشو التائهة المضطربة ، وروح بيروس الظالمة الماثية .

يوسف غنيمة

﴿ القثار والقيثارة ﴾

انكر بعضهم ورود هذين اللفظين في كلام الاقدمين من السلف . قلنا : نعم . لكنهما جاءا في كلام مولدينا فقد ذكر القثار الشقندي (راجع مجلة المقتبس ١ : ٢٩٨ و ٤٣٧) وذكر القيثارة المسعودي في مروج المذهب (٨ : ٩١ من طبعة باريس) قال عنها : « لها اثنا عشر وترا » اه .